

صادوق الحاج

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

أثر الرحلات المغاربية على البيئة الحجازية

الملخص:

لقد كان للرحلات المغاربية الى الحجاز دورًا هامًا في توطيد العلاقات الثقافية واثبات درجة التبادل والتأثير والتأثر على جميع الأصعدة بدءًا من الاحتكاك بين أهل العلم وتلقائيته الى الإنتاج الفكري الذي تبلور في كتب الرحلة، فهي تعكس نظرة الرحالة الذين عرفوا وتعرفوا على علماء الحجاز، فكانت آثارهم واضحة المعالم، وتعتبر مصدرًا وثقًا لما شاهدوه وعاشوه، وطبيعة تأثير الرحالة المغاربية على البيئة الحجازية.

Summary :

The journey of the Maghreb to the Hijaz has played an important role in the consolidation of cultural relations and proof of the degree of exchange, influence and impact on all levels, starting from the friction between the scholars and their reception to the intellectual production that crystallized in the books of the journey. It reflects the view of travelers who knew the Hijaz scholars. Monuments, and a source of confidence in what they saw and lived, and the nature of the impact of Moroccan travelers on the environment of Hijaz.

Résumé :

Le voyage du Maghreb au Hijaz a joué un rôle important dans la consolidation des relations culturelles et la preuve du degré d'échange, d'influence et d'impact à tous les niveaux, à partir des frictions entre les savants et la production intellectuelle cristallisée dans les livres du voyage. Monuments, et est une source de confiance dans ce qu'ils ont vu et vécu, et la nature de l'impact des voyageurs marocains sur l'environnement Hijaz.

الكلمات المفتاحية:

الرحالة المغاربة-الحجاز-التأثير-التأثر-الإفادة-الاستفادة-البيئة الحجازية-التأثير الثقافي-التأثير الاجتماعي-التأثير الاقتصادي-الاحتكاك-الإنتاج الفكري-الإنتاج العلمي

مقدمة

لقد كان لمنطقة الحجاز ولعلمائها وفقهائها الفضل الكبير على النهضة العلمية في كثير من البلاد الإسلامية إذ فتحت أبوابها لأبناء المسلمين عامة، والمغاربة خاصة، واستقبلتهم ساحاتها العلمية، وتهيأ لهم طلب العلم في رحاب الحرمين الشريفين ولقاء العلماء الأجلاء، فانتشرت العلوم إلى البلاد الإسلامية الأخرى بفضل علماء الحجاز الذين كانوا صلة الوصل ونقطة الالتقاء بين العلماء المسلمين وأبناء الأمة الإسلامية على اختلاف بلادهم.

وغدت الحجاز مقصدا لطلاب العلم من شتى أنحاء البلاد الإسلامية ، وتطورت الحياة العلمية فيها نتيجة جهود العلماء المسلمين في مكة والمدينة وغيرهم من العلماء المغاربة الذين استوطنوا مكة أو المدينة ، أو جاؤوا فيها لفترات زمنية وكتب تراجم العلماء المغاربة تبين بوضوح اثر هؤلاء العلماء وتؤكد على النشاط العلمي الذي تزايد مع مرور الوقت من خلال حلقات التدريس في أروقة الحرمين الشريفين ، أو من خلال بعض المدارس العلمية التي أقامها الأمراء والسلاطين بمكة المكرمة وأوقفوا

عليها الأوقاف والمخصصات المالية ، وعينوا العلماء للتدريس فيها ، وأنفقوا بسخاء على طلاب العلم لمساعدتهم على التفرغ لطلب العلم.

1-الرحلات وأثرها في التواصل الثقافي بين علماء الحجاز والعلماء المغاربة:

إذا كان عامة المسلمين يشتاقون لأداء فريضة الحج والوصول إلى الأماكن المقدسة بمكة والمدينة فإن العلماء اشد شوقا ورغبة منهم ، وذلك بسبب معرفتهم بأهمية أداء هذه الفريضة وما يحصل عليه المسلم من المنافع والفوائد الدنيوية والأخروية من أداء هذه الشعيرة العظيمة، وما يجودونه من لذة العبادة لله عز وجل والخضوع له، وتوحيده والاستجابة لأمره وسنة نبيه، وهم ينتقلون بين المشاعر المقدسة في مكة ومنى ومزدلفة وعرفات، وانشغالهم بأنواع العبادات القلبية والبدنية والمالية، خلال أيام الحج المباركة، فيزيد إيمانهم وتطمئن قلوبهم وتصفو نفوسهم بتلك الطاعات والأعمال الصالحة، وهذا اللقاء الإسلامي الكبير في هذه الأراضي المباركة وفي جوار الحرمين الشريفين لا يتيسر لبعض المسلمين إلا مرة واحدة في العمر، فيدفعه ذلك إلى الحرص على استغلال أداء تلك الفريضة بما يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه، فهو إما مشغولا بعبادة أو طلب علم أو تجارة، ولا تخلو جميعها من فائدة عليه وعلى أمته الإسلامية.

والحج عبادة ذات فضاء فسيح جمعت المقاصد الدينية و الدنيوية، وهي من قبل هذا شعار ناطق يوضح جوهر الإسلام، لما اشتملت عليه من مقاصد دينية تتلخص في القرب إلى المولى عز وجل بما وضعه لعباده من مناسك يؤديونها، وعبادات يقومون بها في أمكنة معينة و أزمته محدودة.

{1}

ومقاصد الحجاج و مصالحهم الخاصة على اختلاف أنواعها و تعدد أغراضهم مشروعة معتبرة معتد بها مادامت في حدود المشروع، و هي تحقق مدلولات نداء أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام و استجابة للأمر: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِضْمْ حَرَمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا بَيْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاحْتَبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾{2}

وفيما يخص العلم و العلماء فإن أداءهم لفريضة الحج يمكنهم من الالتقاء بغيرهم من يحضر موسم الحج، حيث تلتقي أمة الإسلام على اختلاف شعوبهم و أعراقهم ، وأصبحت رحاب الحرمين في

مكة المكرمة و المدينة المنورة ملتقى لصفوة علماء الأمة و مفكرها على مدى التاريخ الإسلامي، و غدا الحج إلى مكة فرصة مواتية للقاء العلماء و الأدباء و المفكرين من شتى بقاع العالم الإسلامي، يتم من خلاله التعارف و الإطلاع على المؤلفات ، و أخذ الإجازات العلمية فيما بينهم و يحققون من خلال أداء فريضة الحج أكثر من فائدة ، و غاية لا تحقق لهم من دون أداء هذه الفريضة العظيمة و الوصول إلى مكة و المدينة. {3}

وإلى هذه الغاية العظيمة التي يسعى إليها العلماء، يقول الذهبي: "ولقد كان من خلق طلبة الحديث أنهم يتكلفون الحج، وما المحرك لهم سوى لقي سفيان عيينه، لإمامته وعلو أسناده، وجاور عند غير واحد من الحفاظ". {4}

ويقول عبد الرحمن بن يحيى المعلمي: "...كان من أعظم ما يهتم به العالم إذا حج الاجتماع بالعلماء والاستفادة منهم وإفادتهم، لقد كان بعض العلماء يحج ومن أعظم البواعث له على الحج طلب العلم والاجتماع بالعلماء...".

وقد أثمرت هذه اللقاءات العلمية تعاوناً وعلماً وفكرياً عبر العصور بين علماء الأمصار الإسلامية {5}

وإما أخذ الإجازات العلمية فيما بين العلماء وطلبة العلم، فقد حرص الوافدون إلى بلاد الحرمين الشريفين على لقاء علماء مكة و المدينة، لمكائهم العلمية، ولأخذ العلوم منهم وحصولهم على إجازات علمية في علوم إسلامية مختلفة، تدل على اعتراف العالم باستحقاق الطالب وجدارته، ولها مدلولها وإفصاحها عن قدر الشيوخ الذين أجازوه، فكلما كانوا ذوي قدر كبير وشأن عظيم في العلم، عظمت النظرة للطالب، وارتفع قدره، إذ مكائته من مكائتهم، وقدره حسب ارتفاع أقدارهم. {6}

ولقد كان الحج أكبر وأعظم وأهم وسيلة قدمها الدين الإسلامي للمسلمين أينما وحيثما كانوا ، والحج أبرز رسالة موجهة إلينا لمعرفة الآخر ولاكتشاف الآخرين وما لديهم من ثقافات وحضارات ، وثقافة الحج وحدها تعتبر عن فكر خلاق تجلي فيما قدمه العلماء والفقهاء للأمة الإسلامية من أحكام فقهية تتعلق بأداء الحج ، أو الجوانب الأخرى المرتبطة به مثل السفر وآدابه والعلاقات مع الآخرين

، وكيفية التدريب على تحمل المتاعب ومواجهة المشاق والمصاعب وغيرها مما يحتاجه الحاج في هذه الرحلة المهمة عند كل مسلم. {7}

وقد كان للحجاج المغاربة عموما وللعلماء منهم خصوصا فوائد متعددة استفادوها من أدائهم لهذه الفريضة، فكانوا يحرصون أثناء موسم الحج على الاستفادة العلمية من علماء الحجاز، ويعتزون بالسند الذي يعودون به إلى بلادهم وهم يرددونه في مجالسهم العلمية، ويعود العلماء المغاربة وهم يحملون معهم صورة صادقة عن الدين الإسلامي، وما تلقوه من علماء الحجاز، ويعود الحجاج المغاربة بعد ما عاشوا أياما في رحاب الحرمين الشريفين بمكة والمدينة.

ويلاحظ عند الحديث عن العلماء المغاربة ودور الحج في حياتهم: إن الحجاج المغاربة فاقوا غيرهم في الاهتمام بهذه الفريضة وتدوين ما يرافق أداءها من مواقف وإحداث، وقد ترك العلماء المغاربة كثيرا من الرحلات المكتوبة فيها المقتضب وفيها المسهب، وفيها المنثور وفيها المنظوم والفيصح والعامي، وتدل هذه الرحلات المكتوبة على أن الزائر المغربي فيما يتصل بالحج وبمكة المكرمة والكعبة المشرفة و زمزم و الصفا و المروة، وزيارة المدينة المنورة يحتاج إلى مؤلفات، لأنه مليء بالإيمان والعظمة والفائدة. {8}

وكان العلماء المغاربة مولعين بالرحلة إلى الحجاز فهم بذلك يبحثون عن ذاتهم وعن منابعمهم وأصولهم، وتشير المصادر التاريخية إلى هذه الاتصالات، وإلى هذا التواصل الديني الثقافي والاجتماعي بين المغاربة والمشاركة في بلاد الحجاز، وكان المغاربة يفاخرون غيرهم بلقب: (الحاج) ويضيفونه إلى نعوتهم الشخصية، وذلك أن المسافة بينهم وبين الحجاز لم تكن مسافة قصيرة ولا سهلة ولا آمنة، وأصبحت الأسر المغربية تزهد في ألقابها السابقة مهما كانت وتكتفي بكلمة (الحاج)، ونجد اليوم من العائلات في المغرب العربي، عائلة (ابن الحاج) عوضا أن تقول: التلمساني القسنطيني أو الليبي أو الفاسي {9} أو غيرها من الألقاب، مما يدل على مكانة الحج إلى بيت الله الحرام في نفوسهم.

وإذا كان الحجاج يفتدون إلى الحرمين من جميع بقاع العالم الإسلامي، فإن أهم الوفود الإسلامية كما دوتها المصادر التاريخية تتكون من الركب المغربي، وكان الحجاج يتعرضون لمخاطر عظيمة

وأهوال كبيرة ، ومضاعفات خطيرة على أرواحهم أثناء مرورهم ببعض البلدان أثناء سيرهم إلى بلاد الحجاز أو رجوعهم منها ، وكانت هذه المخاطر تزيد في فترة السفر اللازمة لتقطع تلك المسافات وتتضاعف إلى شهور متتابة ، وما إلى ذلك إلا بسبب كثرة الفساد في بعض البلدان و قلة الأحكام. {10}

و نجد الشوق العظيم يدفع العلماء المغاربة إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد رسول الله ، والصلاة في الروضة الشريفة ، وكانوا يتطلعون بشوق و لهفة للوصول إلى الأماكن المقدسة بمكة والمدينة ، ومما يؤكد ذلك ما سجله الشيخ أحمد بن عيسى أطنيش ، عن رحلته إلى بلاد المشرق و الحرمين ، قائلاً: "كنت أتشوق لرؤية الحرم المكي و المدني و تدريس الناس بهما..." ويقول محمد السنوسي في رحلته الحجازية: " إن قصدي للحجاز لأداء فريضة الحج، هو المحرك الأول والأعظم للرحلة..." {11}

نلاحظ من خلال الرحلات المسالفة الذكر لأداء فريضة الحج إشارة واضحة في دور الحج في توثيق أواصر الأخوة وتحقيق الوحدة والاجتماع بين أبناء الأمة الإسلامية.

و لازالت ملامح التواصل الثقافي العلمي بين علماء الحرمين الشريفين و علماء البلاد المغاربة موجودة في الوقت الحاضر، حيث يشترك الجميع في حضور المناسبات العلمية و الندوات و الملتقيات الثقافية خلال موسم الحج {12} من حين لآخر فضلا عن مشاركة العلماء المغاربة لغيرهم من المسلمين لأداء فريضة الحج يدفعهم الشوق إلى الديار المقدسة في رحاب الحرمين الشريفين، ويجددون بذلك التواصل العلمي القديم فيما بينهم ، وهو تجديد و إحياء لصلوات علمية و ثقافية بين علماء بلاد الحرمين الشريفين والعلماء المغاربة، وساعدت تلك الصلوات على انتظام هؤلاء العلماء المسلمين من أقطار المغرب العربي والحجاز في صف طويل من العلماء العاملين عبر العصور الإسلامية المتتابة.

2-الأثر العلمي والثقافي للمغاربة في بلاد الحجاز:

حرص العلماء المغاربة على استغلال وقت أداء فريضة الحج بلقاء العلماء المسلمين الوافدين إلى الحجاز عامة ومكة خاصة لأداء فريضة الحج وبعلماء المسجد الحرام والمسجد النبوي والأخذ عنهم

والاستفادة مما لديهم من علوم من جهة، ومن جهة أخرى حرصوا على الاشتغال بتعليم غيرهم ممن يفد إليهم في أماكن مكة والمدينة، أو يجلس إليهم في حلق دروسهم العلمية بين أروقة الحرمين الشريفين وأهم المغاربة شراء الكتب العلمية النافعة، ونسخ بعضها، واستعارة البعض الآخر للاستفادة منها فترة بقائهم في رحاب الحرمين الشريفين. {13}

ومن خلال قراءة بعض المصادر التاريخية التي أشارت إلى بعض الجوانب من أخبار رحلات المغاربة لأداء فريضة الحج، {14} يلاحظ أن بعض هؤلاء المغاربة يتوجهون من ميناء ينبع عن طريق البر إلى المدينة للصلاة في المسجد النبوي الشريف والبقاء في المدينة ما كتب الله لهم من الأيام ثم يتوجهون بعد ذلك إلى مكة لإكمال شعائر الحج، وبعض آخر من هؤلاء المغاربة يصلون أولاً إلى ميناء (جدة) ثم يؤدون فريضة الحج ويتوجهون بعد ذلك إلى المدينة في المرحلة الثانية من رحلتهم. {15}

والرحلة الحجاجية إشارة إلى أداء فريضة الحج وطلب الركن الخامس من أركان الإسلام وهذه الرحلة يقطع فيها الحاج المغربي المسافر أطول المسافات متوجه إلى البيت العتيق، يسير في البر ويركب في السفن في بعض الطريق أو كله يطول الطريق، وتتعدد فيها وسائل السفر وتتنوع المشاهد والمشاهدات. {16}

ولا يخلو الطريق من المغامرات والتعرض للأخطار من موقع لآخر، بدءاً من الصحراء الجزائرية، ثم الأراضي التونسية والليبية والمصرية، ثم فلسطين، ومنها جنوباً باتجاه البيت العتيق والأرض المقدسة بمكة المشرفة. {17}

والرحلة إلى الحجاز باتجاه الحرمين الشريفين والأماكن المقدسة تستغرق ما بين ستة إلى ثمانية أشهر في الذهاب إلى مكة، ومثله في العودة إلى البلاد المغاربية، وهذه الفترة الزمنية الطويلة تبين لنا حجم المشاق التي يتعرض لها الرحالة المغاربة في سيرهم إلى بيت الله الحرام، ولكنهم كانوا يكابدونها رغبة في الأجر والثواب من الله عز وجل ويصبرون على تلك المشاق بقوة إيمان، وعزيمة صادقة وهمة عالية، ونية خالصة.

وتشير مصادر التاريخ المكي بما كان للمغاربة القادمين إلى الحجاز و بخاصة إلى مكة المكرمة و المدينة و المجاورين بها من إسهامات جلييلة ،ومن جهود ومشاركات كبيرة في النهضة العلمية، وفي مقدمة ذلك التدريس في أروقة الحرمين الشريفين و ساحاتها وفي أماكن إقامتهم وتظهر آثار ذلك النشاط العلمي بما استفاد علماء مكة و المدينة من اقتباس أو كتابة و تأليف وأكادوا تلك الفائدة بالثناء العطر و الذكر الحسن لأولئك المغاربة المجاورين بمكة و المدينة، أو القادمين لأداء فريضة الحج ما حملوه عنهم من إجازات و مؤلفات علمية، مذكرات شخصية، بينت ما حصل من فوائد علمية في تلك اللقاءات العلمية في الحجاز، ووردت أسماء هؤلاء العلماء المغاربة الأجلاء الوافدين إلى مكة للحج في كتب التراجم، مثل: كتاب "الجواهر الحسان في تراجم من لقبته من الأساتذة و الخلان" للشيخ الفقيه زكريا بن عبد الله بن بيلا المكي (ت 1413هـ).{18}

ومن العلماء المغاربة الذين وفدوا إلى الحجاز وقاموا بالتدريس فيها وفي غيرها من البلاد الإسلامية أثناء توجههم إلى مكة لأداء فريضة الحج، وفي طريق عودتهم إلى بلدانهم المغاربية.{19}

-الشيخ محمد بن عيسى أطفيش الشهير بقطب الأئمة، والشهير بقطب المغرب عند المشاركة درس خلال وجوده في الحجاز كتاب "السنوسية في عقائد المالكية"، كما ألف كتابه الشهير في المنطق "إيضاح المنطق في بلاد المشرق" كما سبق ذكره في رحلته الحجازية، كما مارس مهنة تدريس الناس بالحرم المكي والمدني، مما أدى إلى التناف الطلبة على اختلاف مشاربهم من حوله.

-الشيخ محمد بن علي السنوسي، أثناء مجاورته بمكة المكرمة اجتمع بنخبة من العلماء والأولياء وكان يجمع ما بين الطريقة والحقيقة، كما قام بتربية المرتدين، وإحياء سنة جده الأمين (أحمد بن عبد الله بن إدريس). كما تكفل بإدارة الطريقة القادرية بعد وفاة العلامة أحمد بن إدريس السنوسي، كما أسس أول زاوية له بأبي قبيص قرب مكة، كما كانت أفئدة الحجيج المغاربة والأفارقة تهوى إلى الشيخ، وتزداد حماسة أتباعه له.

-الشيخ محمد السنوسي، صاحب الرحلة الحجازية، الذي شارك مع شريف مكة عبد الله بن عون ووالي الحجاز عثمان باشا في غسل الكعبة المشرفة.

-الشيخ محمد محمود ولد التلاميذ الشنقيطي، الذي التقى بأمر مكة الشريف عبد الله مؤسس المملكة الأردنية الهاشمية، الذي كان معروفاً بمحبته لأهل العلم وتكريمهم والإحسان عليهم، وقد أعجب الأمير ببن التلاميذ إعجاباً شديداً فأكرمه أشد إكرام، وكان يقيم عنده، كما أن علماء الحجاز جعلوا منه معجزة زمانه في الحفظ والعلم وسعة الاطلاع، كما كانت له مجموعة من المناظرات والمساجلات مع علماء مكة، خاصة ما حصل مع الشيخ الدراج المغربي رئيس المالكية في الديار المقدسة.

و هكذا كان هؤلاء العلماء المغاربة المنارات علم وهدى في أقطارهم و خارجها ، ينشرون العلم بين الناس و يقومون بالدعوة بين أهلهم و ذويهم ، برعوا في العلم و الدعوة ، و ضرت إلى مجالسهم العلمية أجاد الإبل طلبا لعلومهم ومعرفهم. {20}

وقد حرص الحجاج من العلماء المغاربة على التواصل مع علماء المدينة النبوية الذين يقومون بالتعليم بالمسجد النبوي الشريف وزيارة المكتبات العلمية، وتولى بعض العلماء المغاربة التدريس والتعليم بالحرمين الشريفين، و الفتوى للمستفتين، أثناء نزولهم بمكة المشرفة وزيارتهم للمسجد النبوي الشريف بالمدينة. {21}

وكان العلماء المغاربة يستفيدون من المكتبات و خزائن الكتب الموقوفة على الحرمين الشريفين ويستعيرون بعضها للقراءة والاستفادة منها، فضلا عن شرائهم للعديد من المؤلفات في مختلف العلوم الإسلامية، فكان للعلماء المغاربة من أسباب حفظ هذه المخطوطات ونقلها إلى خزائن الكتب بالبلاد المغاربية. {22}

إن ما يبحث عنه العلماء و طلبة العلم في الحجاز من علم و التقاء بالشيخ و العلماء المسلمين المغاربة، قد تبيأ لهم وتيسر لهم ذلك من خلال قدوم العلماء المسلمين المغاربة إلى رحاب البيت العتيق لأداء فريضة الحج أو إلى الروضة الشريفة بالمدينة للصلاة في المسجد النبوي ، فحفف الله عنهم عناء السفر و انتقال و الارتحال لطلب العلم بوصول هؤلاء العلماء الفضلاء من شتى أقطار البلاد الإسلامية عامة و المغاربية خاصة، مما شجعهم على استغلال الأوقات في الاستفادة من هؤلاء العلماء، وحثهم على لقاءهم و الجلوس إليهم للأخذ من علومهم ، فكانت أروقة الحرمين

الشريفيين خلال موسم الحج خاصة منبلا عذبا عاما ينهل منه العلماء و طلبة العلم المسلمين في كافة العلوم الإسلامية ، وهذه إحدى المنافع المباركة من أداء فريضة الحج و سوف تستمر هذه المنافع و الفوائد مع استمرار توافد العلماء المغاربة إلى الحجاز. {23}

3-التأثير الاجتماعي:

عرضت الرحلات النثرية المغاربية ، موضوعات اجتماعية متنوعة و ردت في شكل ملاحظات وإشارات، إلى ظواهر و حالات اجتماعية ، ارتبطت بأفعال الناس و بأخلاقهم و عاداتهم ، في الحجاز كما تعلقت أيضا بالأحداث التاريخية التي كانت لها آثار إيجابية أو سلبية على المجتمع الإسلامي بكامله ، أو على بعض أفراد يومئذ و غالبا ما كانت ملاحظات الرحالين ، تخص الناس ،الذين لا قوهم و تعاملوا معهم ،أو سمعوا عنهم ، أثناء الرحلة و هو ما يجعل تلك الملاحظات تأتي منطبعة بأحاسيس الرحالة وأحكامه ومواقفه الشخصية ، و منتصفه بالذاتية والتعميم أو المبالغة ، في أكثر الأحيان. {24}

وسأحاول إبراز بعض الظواهر، والحالات الاجتماعية، التي شاهدها الرحالون المغاربة في الحجاز. فاسترعت انتباههم، ودافعهم إلى وصفها، والتعبير عنها بغفوية، وهو ما يميزها عن ملاحظات عالم الاجتماع الذي يركز على الظاهرة، فيحيط بها جوانبها، يبحث عن مسبباتها ونتائجها بداياتها، وحالات تطورها.

أ-الحوادث الاجتماعية (الحروب، الخراب، المجاعة، الأوبئة)

عرف المجتمع الإسلامي إبان الحكم التركي حوادث ومخاطر كثيرة، من حروب داخلية وخارجية، وانخفاض في مستوى المعيشة، وانتشار الأمراض والأوبئة وغيرها من الوقائع، تركت آثار سلبية على السكان، كالوفيات والجلاء الجماعي وخراب المدن.

وقد تناول الرحالة المغاربة، وتحدثوا عن بلد الحجاز الذي عرف مشاكل مشابهة، تعلقت بالقرصنة البحرية وترصد المرتزقة بالسفن الوافدة على ميناء جدة قصدا لسلب سلعها و قتل المقاومين وهي أخبار وردت في رسائل مفتي الحرم المكي عبد الرحمن بن مرشد إلى الرحالة المغاربة، فقال

المفتي عن أحوال الحرمين: "...فهني على ما يعهده من القرار غير أن المرتزقة توارت عليهم ذواتق الأحوال فألجأتهم إلى مذاق الأهوال ، حيث لم تصل سفن الحبوب ، ولا نالهم من محصول بندر جدة إلا ما يسفيه أضعف الهبوب ، فأحوال أهل الحرمين بسبب ذلك غير منتظمة ، وأمالم في دفاتر اليأس أضحت مرتقمة".{25}

ونلاحظ أن وصف الرحالة المغاربة للحجاز، يفيد تردي الأوضاع وعدم الاستقرار ضمن نصوص أدبية نثرية أو شعرية، تحمل معاني التأثر والحزن، وتعكس خصائص الكتابة الفنية في ذلك العصر وهي مكنتة بالصنعة اللفظية.

وسجل الأمير عبد القادر ممارسة بعض قبائل العرب أفعال السرقة، وقطع الطريق على المسافرين، إذ واجهوا أخطار السرقة بصحراء مصر، وبعض معادن الحجاز، وفي الطريق المؤدية إلى بغداد من جهة الحجاز.

ب- قبح الصفات والعادات:

لقد ترك الرحالة المغاربة أحكاما عامة وأخبارا، عن صفات وأخلاق لم تعجبهم عند أهل زمانهم، أو أساءت إليهم، وصدرت عن بعض الفئات الاجتماعية من الخاصة أو العامة في بعض مناطق الحجاز كالغيرة والحسد، والكره والظلم والغش والكذب والوشاية والسرقة وقطع الطرق على المسافرين، ... وغيرها من الأفعال والأحداث السلبية التي يصعب حصرها.

وتذكر بعض الأحكام، التي شكلت اتفاقا بين الرحالة المغاربة في الحجاز في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) فذكر محمد السنوسي أنه وجد في الحجاز فئة تعاديه وتحقد عليه

وتحسده في مكانته العلمية وشهرته بين الناس. ولا سيما عندما لاحظوا أن أفئدة الحجيج المغاربة والأفارقة تهوي إليه، وتزداد حماسة أتباعه له، بل طال تهديد خصومة أتباعه عيانا في شوارع المدينة فكان لابد من الخروج من الحجاز.

وكذلك تعرض أبو الراس الناصر، باختصار شديد إلى ذكر سوء معاملة العلماء المصريين له أثناء أدائه فريضة الحج إذ حسدوه في علمه، وحفظه، وفهمه، وصغروا من شأنه، فامتحنوه وشكوا في إجابته لكنه أثبت تفوقه، بعدما ظنوا أنه أقل علما وحفظا.

وأشار الأمير عبد القادر من جهته في عبارات سريعة إلى وجود قاع الطرق في الصحراء الواقعة بين طيبة وبغداد، فأثر اجتياز طريق الشام نحو دمشق ومنها إلى بغداد، فقال "... ثم خرجنا مودعين صاحب الروضة المفضلة على بقاع الأرض والساء زائرين مدينة السلام المسماة "بغداد" على طريق الشام لصعوبة طريق الدورق، بكترة اللصوص المنتهين وعدم اجتياز السيارة مع قبائلها من البدو، لكونهم لا ينالهم حكم سلطان، ولا خوف من الله {26}. وهذا القول يدل على استمرار ظاهرة اللصوصية في دروب الصحراء الحجازية حتى القرن الثالث عشر الهجري، وهو أمر بديهي في زمن غابت فيه السلطة الفعلية وساد الظلم والظلام أرجاء البلاد الإسلامية.

ج-حسن الأخلاق والعادات:

دون الرحالة المغاربة أخبارا كثيرة في كتبهم المذكورة تتعلق بالأخلاق والعادات عند الأهالي الذين تعرفوا عليهم مثلما عبروا عن بعض الظواهر السلبية كما تقدم القول.

ومما يتصل بصفات الصلاح في نظر الرحالة المغاربة الولاية والكرم والترحيب بالغريب ومن العادات الحسنة التنزه في الحدائق والأماكن العامة في أيام الأعياد، والاختلاط بالعلماء والأعيان وعادة الاحتفال بمراسيم حمل كسوة الكعبة المشرفة، مما يدل على أن وطن المسلم يومئذ يمتد على طول العالم الإسلامي، وأن المسلمين الصادقين حيثما وجدوا فهم أهلهم وعشيرته {27}.

4-صفحات مشرقة من تاريخ الرحالة المغاربة:

للرحالة لمسلمين المغاربة صفحات مشرقة في تاريخ الأمة الإسلامية، وذلك بسبب ما قدموه من أعمال جليلة في مجال نشر العلم والتعليم في بلدان عديدة وخاصة في بلاد الحجاز، وتجدر

الإشارة إلى النشاط العلمي والثقافي وغيره من الأنشطة الأخرى التي ساهم فيها الرحالة المغاربة الفضلاء، وقد كان هؤلاء الرحالة أشبه بمدارس علمية منتقلة في الأمصار الإسلامية يفيدون ويستفيدون من غيرهم في المجال العلمي والثقافي في أي مكان مروا به أو استقروا فيه، وفي ما يلي إشارة على جانب من هذه الصفحات المشرقة من تاريخ الرحالة المسلمين المغاربة ونشاطهم العلمي والتعليمي، خلال أدائهم لفريضة الحج أو ارتحالهم لطلب العلم.

أشارت المصادر التاريخية إلى تواصل وثيق بين علماء البلاد المغاربية وبلاد المشرق، فوجد طائفة من العلماء المغاربة ارتحلوا إلى المشرق الإسلامي، واستقروا بالحجاز ونزلوا بها وقد تركوا للأجيال بعدهم عددا كبيرا من المؤلفات العلمية وساهموا في إثراء الحركة الثقافية والفكرية في الشرق الإسلامي عامة والحجاز خاصة، وأورد الرحالة في مؤلفاتهم عن رحلاتهم وصفا لما شاهدوه أثناء إقامتهم في الحجاز، مثل المساجد والآثار والأسواق والمكتبات ودور العلم وما تحويه من ذخائر وكنوز علمية وحضر بعض هؤلاء الرحالة دروس العلماء فوصف أساليب التعليم وضلاعة رحلات الفقه والحديث وغيرها من العلوم الإسلامية. {28}

وقد كان التوجه لأداء فريضة الحج من أهم الأسباب التي ساعدت على هذا التواصل بين المسلمين في البلاد المغاربية وبلاد الحرمين الشريفين.

وتشير المصادر إلى قائمة طويلة من العلماء المغاربة الذين نزلوا بالحجاز واستقروا بها للتعليم والفتوى والإمامة والقضاء. وقد كان من أهم أسباب استقرار الرحالة المغاربة بالحجاز وجود الأماكن المقدسة، مكة المكرمة والمدينة المنورة لداء فريضة الحج وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. {29}

وقد شهدت العلاقات الثقافية بين بلاد المغرب العربي والحجاز في القرن الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي ازدهارا ملحوظا وذلك رغم الظروف التي عاشتها دول المغرب العربي خاصة الجزائر وتونس في منتصف هذا القرن، وذلك بفضل عملية التواصل العلمي التي اهتم بها العلماء المغاربة في ذلك الوقت من خلال رحلاتهم المتعددة والمتواصلة إلى الديار الحجازية، ويلاحظ تعدد رحلات العلماء المغاربة نحو البلاد الحجازية، لأن العلماء المغاربة كانوا يقصدون المشرق

الإسلامي لأداء فريضة الحج أولاً ثم لطلب العلم أو البيع والشراء والتجارة بالإضافة إلى أن ركب الحاج المغربي يضم عددا وافرا من العلماء وطلبة العلم الذين يرغبون في تحقيق مقصدين هما:

- الحج إلى بيت الله الحرام.

- طلب العلم والاستزادة من العلماء والحصول على الإجازات من كبار الشيوخ وسماع الروايات وحفظ الأسانيد والاطلاع على المصنفات العلمية والأدبية، حيث تشير المصادر إلى ازدهار العلم في المشرق الإسلامي عامة والحجاز خاصة في هذه الفترة الزمنية.

خاتمة

ان هذه الإشارة الموجزة لجهود العلماء المغاربة تبين لنا الأعمال الجليلة التي قاموا بها في مجالات العلم والتعليم والفتوى والقضاء والإرشاد والتوجيه في مختلف الأقطار الإسلامية التي مروا بها أو استقروا فيها خلال رحلات الحج أو طلب العلم أو نشره بين أبناء الأمة الإسلامية، وهي أعمال جليلة لهؤلاء العلماء ما زالت آثارها وفوائدها شاهدة على فضلهم حتى وقتنا الحاضر، وما تلك الأعمال إلا ثمرة طيبة من ثمار ومنافع التوجه إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونتج عنها عبر العصور التاريخية ذلك النموذج الفريد للتواصل بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، فكانت حلقات العلم والتعليم للمقيمين فيها والوافدين إليها خاصة من المغرب العربي فازدهرت ونشطت الحركة العلمية بالحجاز بجهود العلماء فيها وبمشاركة العلماء المسلمين الوافدين إليها أثناء موسم الحج العظيم، وتحقق لهم جميعا كثيرا من المنافع الدينية والدنيوية الناتجة عن أداء هذه الشعيرة الدينية العظيمة والركن الخامس من أركان الدين الإسلامي الحنيف، وما هذا التواصل بين هؤلاء العلماء إلا فائدة طيبة مباركة من فوائد ومنافع أداء فريضة الحج.

ومن خلال اجتماع العلماء المسلمين عامة والعلماء المغاربة خاصة مع إخوانهم علماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة أصبحت بلاد الحرمين الشريفين مقصدا دينيا وعلميا وثقافيا لطالبي العلم من شتى الأقطار الإسلامية.

الهوامش:

- {1} - عبد الوهاب أبو سليمان، مكة العالمية في موسم الحج في القرن الرابع عشر الهجري، الطبعة الأولى، القاهرة، 1995، ص345.
- {2} - سورة الحج، الآية 27.
- {3} - عبد الوهاب أبو سليمان، المرجع السابق، ص348.
- {4} - عبد الوهاب أبو سليمان، المرجع السابق، ص349.
- {5} - عبد الهادي التازي، مكة في مائة رحلة مغربية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، بدون تاريخ، ص14.
- {6} - نفسه، ص16.
- {7} - نفسه، ص24.
- {8} - عبد الكريم كريمة، "بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية المدونة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة"، مجلة التاريخ العربي، العدد الخامس، 1418هـ، صص115-117.
- {9} - محمد السنوسي، الدررة النقية في أخبار السلالة الإدريسية، مطبعة الشهاب القاهرة، 1349هـ، ص26.
- {10} - حسن محمد بافقيه، العلاقة الثقافية بين علماء المغرب وعلماء الحرمين، الطبعة الأولى، بدون مكان، 1427هـ، ص10.
- {11} - سعيد بن سعيد، "أدب الحج في المغرب العربي، نماذج من الرحلة الحجية المعاصرة في المغرب"، مجلة التاريخ العربي المغربية، العدد 21، الرباط، 1422هـ، ص318.

- {12} -عبد الحميد أبو سليمان، عطاء العلماء الوافدين الى مكة، دار النهار، بيروت، لبنان، 1979، ص363.
- {13} -عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص119.
- {14} -أبو العباس أحمد المقرئ، رحلة في المشرق والمغرب، مخطوط رقم 3191، المكتبة الوطنية، الجزائر، ص58.
- {15} -عبد القادر بن محي الدين الجزائري، مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية، تحقيق: محمد صغير بناني وآخرون، ص110.
- {16} -أبو العباس أحمد المقرئ، نفع الطيب، الجزء الأول، ص62.
- {17} -العزیز بن عبد الله، "ريادة فكرية بين مصر والمغرب"، مجلة التاريخ العربي، العدد 15، 1421هـ، صص-10-11.
- {18} -طه عبد الرحمان، "الاسهام المغربي في التراث الإسلامي"، مجلة التاريخ العربي، العدد 14، ص16.
- {19} -عبد العزيز الضعيفي، "علاقة العلماء المغاربة بنظرائهم المصريين بين الاستفادة والإفادة نماذج من العصر المريني"، مجلة التاريخ العربي المغربية، العدد 29، الرباط، 1422هـ، صص-383-384.
- {20} -نحاد عبد المحسن، الحياة العلمية في الحجاز، مؤسسة الفرقان للتراث، 1426هـ، ص368.
- {21} -نفسه، ص370.
- {22} -نفسه، ص372.
- {23} -عبد العزيز الضعيفي، المرجع السابق، ص386.

{24} -عبد الحميد أبو سليمان، المرجع السابق، ص367.

{25} -محمد علي فهم بيومي، المغاربة في المدينة المنورة ابان القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، الطبعة الأولى، دار القاهرة، مصر، 1427هـ/2006م، ص325.

{26} -ألبيرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، الطبعة الثانية، دار النهار، بيروت، لبنان، 1977م، ص120.

{27} -حجي محمد، موسوعة أعلام المغرب، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بدون مكان، 1996م، ص45.

{28} -طه عبد الرحمان، المرجع السابق، ص19.

{29} -نفسه، ص21.

المصادر والمراجع

- 1- أبو سليمان، عبد الحميد، عطاء العلماء الوافدين إلى مكة، دار النهار، بيروت، لبنان 1977 م.
- 2- أبو سليمان عبد الوهاب، مكة العالمية في موسم الحج في القرن الرابع عشر، الطبعة الأولى، القاهرة 1995 م.
- 3- أمين أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1948 م.
- 4- بافقيه حسن محمد، العلاقة الثقافية بين علماء المغرب وعلماء الحرمين الطبعة الأولى، بدون مكان، 1427 هـ.
- 5- عبد المحسن خالد، الحياة العلمية في الحجاز، الطبعة الأولى، مؤسسة الفرقان للتراث، السعودية 1426 هـ.
- 6- التازي عبد الهادي، مكة في مائة رحلة مغربية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، بدون تاريخ.
- 7- تقي الدين محمد بن أحمد، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، مخطوط رقم 1170، الجزء الأول، مكتبة دار البارز، السعودية 1417 هـ.
- 8- التهامي الوزاني، تاريخ المغرب، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، مطبعة تطوان، المغرب 1940 م.

- 9- جلاب حسن، "أدبيات الشوق إلى البقاع المقدسة"، مجلة دعوة الحق السعودية العدد 357، الرياض 1421هـ / 2001م.
- 10- الزركلي خير الدين، الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج 3، ط 10، دار العلم للملايين، بيروت لب نان 1992م
- 11- كريم عبد الكريم، بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية المدونة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، الطبعة الأولى، منشورات كلية الآداب، الرباط 1995 م.
- 12- السبعي أحمد، رحلة حجازية، مخطوط رقم 178، الخزانة العامة، المغرب الأقصى.
- 13- الضعيفي، عبد العزيز، "علاقة العلماء المغاربة بنظرائهم المصريين بين الاستفادة والإفادة نماذج من العصر المريني"، مجلة التاريخ العربي المغربية العدد 14، الرباط 1421 هـ.
- 14- المقري أحمد بن محمد التلمساني، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تحقيق محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر 2004م.
- 15- المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م.
- 16- عبد المحسن خالد، الحياة العلمية في الحجاز، الطبعة الأولى، مؤسسة الفرقان للتراث، السعودية 1426هـ.
- 17- عبد القادر بن محي الدين، مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1955م.
- 18- حسين طه، "الحديث سندا ومتنا عن ظهر قلب"، مجلة المستقبل المصرية، العدد 26، مصر 2000م.